● **المبحث الأول: معاملات الأقلية فى العهود:**

النص المحورى الذى يعالج موضوع العهود فى معاملات الأقلية هو قول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [المائدة: ١٣]. معنى الآية،و لا تزال يا محمد - ﷺ - تطلع وتظهر على خيانات اليهود المتكررة، وتقف على مناقضاتهم لما بينهم وبين الناس من العهود والعقود والمواثيق، بصورة مطردة إلا عند الأقلية وهم المخلصون منهم، ممن أسلم وجهه لله وآمن وعمل صالحا، فهؤلاء ستقف عندهم على صورة مشرقة من صور الوفاء بالعهد بينهم وبين الله، ومن ثم بينهم وبين الناس كلازمة من لوازم الإيمان.

وهذه الآية جاءت فى سورة المائدة التى افتتحت بالأمر بالوفاء بالعقود المبرمة من الأطراف المختلفة، سواء ما هو عهد بين الله والناس أو ما هو من العقود التى يتفق الناس عليها كمجتمعات ودول وأمم، أو كأفراد وعشائر، فقال تعالى فى مفتتح السورة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ [المائدة: ١].

قال ابن عباس: العقود هى العهود وهى ما أحل الله وما حرم وما فرض فى القرآن كله من التكاليف والأحكام، وقال ابن كثير عن زيد بن أسلم: العقود ستة؛ عهد الله وعقد الحلف وعقد الشركة وعقد البيع وعقد النكاح وعقد اليمين[١]، وقال القرطبى: «عقود الدين هى ما عقده المرء على نفسه من بيع وشراء وإجارة وكراء ومناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير وعتق وتدبير وغير ذلك من الأمور ما كان ذلك غير خارج عند الشريعة، وكذلك ما عقده على نفسه لله من الطاعات كالحج والصيام والاعتكاف والقيام والنذر وما أشبه ذلك من طاعات ملة الإسلام»[٢] ثم أضاف: «قال الزجاج: المعنى أوفوا بعقد الله وبعقدكم بعضكم على بعض، وهذا كله راجع إلى القول بالعموم وهو الصحيح فى الباب قال ﷺ: المؤمنون عند شروطهم، وقال: كل شرط ليس فى

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٢/٣.

(٢) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٦/٣٢.

كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط، فبين أن الشرط أو العقد الذى يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله أى دين الله »[1].

النص المحورى يفيد أن الوفاء بالعهد صفة للأقلية، والسياق يفيد أن هذه صفة من بني إسرائيل، ولكن السورة بأكملها كما رأينا كانت مفتتحة بآية الأمر بالوفاء بالعقود، مما يمكن اعتماده كصورة عامة للبشرية إذ أن الذين يوفون بالعهود المبرمة قليلون.

ولما كانت الخيانة المتحدث عنها تعنى كذب اليهود وفجورهم، وكانت خيانتهم هى نقضهم العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ، ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله ﷺ كيوم الأحزاب وغير ذلك من هَمهم بقتله وسبه[2] ومحاولة النيل منه حتى فى أسلوب إلقاء التحية، فإن العهود المقصودة فى هذا النص هى العهود السياسية بالدرجة الأولى.

ومعناه أن اليهود من طبعهم خيانة العهود السياسية إلا عند الأقلية، ولعل اليهود يبالغون فى ذلك أكثر من غيرهم، لاسيما إذا حللنا ذلك فى ضوء الواقع السياسى لهم، ولكن فى الحقيقة هذا يكاد يكون طبع البشرية فى الغالب لاسيما ما يتعلق بالعقود المتعلقة بالمصالح المالية كالشركات وغيرها.

ولاشك أن الوفاء بالعهود له أهميته الكبرى فى حياة البشرية جمعاء، ومن ثم يبدو الدور الذى تقوم به الأقلية فى المجتمعات الإنسانية، من تشجيع الناس على التعامل المالى فى الشركات والبنوك والتحالفات السياسية مما يقضى على الفتن والظلم الاقتصادى والغش والسرقات.

وهذا هو سبب التأكيد القرآنى على ضرورة مراعاة العهود والوفاء بها، فقال تعالى: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ** ﴾ [النحل: ٩١] وقال تعالى: ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٤]، أى يسألهم الله عن العهد الذى قطعوه على أنفسهم.

قال الشيخ عبد الحميد بن باديس فى تفسير هذه الآية: « الوفاء بالعهد

---

(١) نفسه ٦/٣٣. (٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/١١٦.

شرط ضرورى لحصول السعادتين؛ عهد الله تعالي لعباده هو ما شرعه لهم من دينه فوفاؤهم بعهده قيام بأعباء ذلك الدين الكريم، وانتظام شؤونهم فى الحياة أفراداً وجماعات وأممًا متوقف على الوفاء من بعضهم لبعض بما بينهم من عهود، فالوفاء - بالعهد - ضرورى لنجاة العباد مع خالقهم ولسلامتهم من الشرور والفوضى والفتن، فهو ضرورى إذا لتحصيل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة»[1].

فليس الوفاء بالعهد خلقا بسيطا كما يظن البعض، بل هو خلق عظيم من أخلاق المجتمعات المتحضرة، ولهذا كان «هذا التشريع من حرمة الأمة فى نظر الأمم والثقة بها للانزواء تحت سلطانها»[2]، قال قطب: «وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد، لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة فى ضمير الفرد وفى حياة الجماعة، وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد فى صور شتى فى القرآن والحديث، سواء فى ذلك عهد الله وعهد الناس، عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة، عهد الحاكم وعهد المحكوم، وبلغ الإسلام فى واقعه التاريخى شأوا بعيداً فى الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا فى ظل الإسلام»[3].

ومن كل ذلك يمكن أن نستنتج أن الوفاء بالعهود أصل من أصول الأخلاق السياسية العالية، يحفظ للفرد قيمته الإنسانية بحفظ جميع الحقوق التى يحتاجها لممارسة الحياة، كما يحفظ للأمة والدولة حقوقها الدولية التى توفر لها كامل السيادة والاستقرار السياسى والاقتصادى.

وهذا الأصل العظيم فى حياة البشرية لا تقوم به إلا الأقلية القليلة من البشرية، وبهذا يتبين لنا دور هذه الأقلية فى استمرار الحياة بصورة طبيعية ومقبولة، ولولاها لوقعت الإنسانية فى حروب لا تبقى ولا تذر، فبجهودهم تحققت السلامة من الشرور والفوضى والفتن لكافة الشعوب، كل حسب طبيعة المجتمع الذى يوجدون فيه.

---

(١) عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير: ١٣٢.

(٢) التحرير والتنوير: ١٥/٩٧.

(٣) فى ظلال القرآن: ٤/٢٢٢٦.